

أسوار المدن السورية من العصر الهلنستي إلى الفتح الإسلامي

الدكتور مأمون عبد الكريم

قسم الآثار

كلية الآداب

جامعة دمشق

شهدت سورية خلال الفترة الممتدة من دخول الإسكندر المقدوني إلى سورية عام ٣٣٣ ق م إلى الفتح الإسلامي عام ٦٣٦ م، الكثير من الأحداث والتطورات التي كان لها الأثر الكبير في تطور أسوار المدن السورية، وقد مرت في ثلاث مراحل مهمة^(١): المرحلة الأولى: تشمل هذه المرحلة العصر الهلنستي وبدايات العصر الروماني أي من بداية القرن الثالث قبل الميلاد حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد. المرحلة الثانية: تشمل هذه المرحلة الجزء الأكبر من العصر الروماني المسمى بفترة السلام الروماني، التي بدأت مع عهد الإمبراطور الروماني أوغسطس (٢٧ ق م - ١٤ م) حتى القرن الثالث الميلادي عندما بدأ الضعف يدب في الإمبراطورية الرومانية. المرحلة الثالثة: تغطي هذه المرحلة نهاية العصر الروماني والبيزنطي في سورية في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثالث الميلادي حتى الفتح الإسلامي ٦٣٦ م.

تأثرت أسوار المدن خلال المراحل الثلاث سلباً وإيجاباً بتطورات الأحداث في المنطقة؛ من أعمال تخريب ودمار وتجديد وتدعيم^(٢).

— ساد في سورية خلال المرحلة الأولى نوعان من المدن: بني النوع الأول وفق النمط الكلاسيكي المعروف بالشطرنجي، تمت الاستفادة من الموقع الجغرافي في بعض المدن؛ كوجود نهر (دورا أوروبوس) أو هضبة (أفاميا) أو بحر (اللاذقية). أما النوع الثاني من المدن فهي المدن القديمة التي شيدت سابقاً مثل: دمشق، حماة، حلب.

تميزت المرحلة الأولى بكثرة الحروب خاصة خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، شهدت تحصينات المدن خلالها أعمال تجديد وتدعيم مستمرة لتلافي الدمار الذي تعرضت له نتيجة الأحداث التي مرت خلال هذه المرحلة وخير مثال على ذلك مدينة أفاميا.

المرحلة الثانية: تمت في هذه المرحلة أغلب المشاريع العمرانية الهامة في سورية الكلاسيكية، شهدت خلالها المدن السورية نهضة عمرانية معمارية وذلك بفضل السلام الإمبراطوري الذي ساد خلال المرحلة.

تبدل نظام الحماية في هذه المرحلة وانتقل من نظام حماية المدينة التي تشكل فيها الأسوار الخط الدفاعي الرئيس إلى الدفاع عن حدود الدولة؛ إذ تم تنظيم خط هجومي *Limes* ابتداءً من عهد الإمبراطور تراجانوس ٩٨ - ١١٧م مدعماً بمراكز عسكرية متتالية على طول الحدود مع الإمبراطورية البارثية^(٣)، تقوم هذه المراكز بحماية المعابر الحدودية ونقاط تواجد المياه ضمن هذا الخط، مثل مدينة دورا أوروبوس التي دخلت تحت السيطرة الرومانية عام ١٦٨م، وتحولت إلى مركز عسكري هام في منطقة الفرات^(٤).

أما حماية المدن داخل الدولة فقد أُنيطت بالفرق العسكرية الموزعة في مناطق مختلفة في سورية، حيث تمركزت بجوار المدينة كالفرقة العسكرية المتمركزة في الضمير

شرق دمشق، رافاني شمال شرق حمص والفرقة المتمركزة بجوار مدينة سيروس في وادي عفرين ٠٠٠ الخ^(٥).

لذلك لم تحظ أسوار المدن خلال هذه المرحلة بالاهتمام الذي كانت عليه في المرحلة الأولى.

تغير نظام الحماية في المدن السورية مع وصول الساسانيين إلى الحكم في بلاد فارس خلال المرحلة الثالثة، تميزت بأعمال هجومية من قبل الساسانيين وصلت ذروتها في الهجوم على سورية عام ٢٥٦م وتدمير مدينة دورا اوروبوس واحتلال مدينة انطاكية وأفاميا ٠٠٠ الخ، كما لعبت تدمير دوراً في الدفاع من جهة الشرق ضد الساسانيين في عهد أذينة^٦، لكنها فقدت هذا الدور بعد اصطدام زنوبيا مع روما وتدمير تدمر عام ٢٧٣م. مما دفع كل من الإمبراطور أورليانوس ودوقليسيانوس لتقوية الخط الحدودي *Limes* وتعويض دور تدمر التي دمرت بإضافة مراكز عسكرية جديدة إلى الخط الذي امتد من أعالي نهر الفرات شمالاً حتى حوران جنوباً، وأصبح هذا الخط ذا طبيعة دفاعية بعد أن كان ذا طبيعة هجومية في المرحلة السابقة^(٧)، كما تحولت بعض المدن السورية كبصرى وتدمر إلى مراكز دفاعية.

أثرت حروب هذه المرحلة بين بيزنطة والدولة الساسانية على المدن السورية، التي انتهت باحتلال الساسانيين لأنطاكية عام ٥٤٠م وعقد هدنة مدة خمسين عاماً، تغيرت السياسة الدفاعية لبيزنطة إذ اعتمد الإمبراطور يوستينيانوس على الغساسنة في سورية ضد المناذرة في العراق المدعومين من الدولة الساسانية، وانتهت هذه المرحلة بالفتح الإسلامي لسورية.

إن التنقيبات المستمرة منذ فترة طويلة في العديد من المواقع الأثرية في سورية، اكتشف من خلالها السويات العائدة إلى العصور الكلاسيكية، التي أعطت الكثير من المعلومات حول تطور أسوار المدن خلال المراحل الثلاث السابقة الذكر. سنحاول رصد أهم التطورات التي حصلت في بعض المدن السورية

أقاميا: تعد أقاميا ثاني أكبر مدينة في سورية، وهي إحدى المدن الأربع التي أسسها الملك السلوقي سلوقس نيكاتور في شمال سورية مع أنطاكية وسلوقية البحر واللاذقية، تميزت أقاميا بموقعها الإستراتيجي المحصن إذ يقع على هضبة مطلّة على سهل الغاب الغني بالأراضي الزراعية. وتم تخطيط المدينة وفق طبوغرافية الموقع لذلك جاء مخططها غير منتظم، يبلغ طول سورها حوالي ٨ كم مدعم بمئة برج، والمساحة الإجمالية حوالي ٢٢٥ هكتاراً. الشكل (١).

يرى جان شارل بالتّي بالاعتماد على التنقيبات التي أجريت في الموقع، بأن التخطيط العام للمدينة يعود إلى العصر الهلنستي، حيث أظهرت التنقيبات في كامل محيط المدينة - باستثناءات بسيطة - وجود أساسات ذات طبيعة معمارية عائدة إلى العصر الهلنستي ولكن الأجزاء العليا من هذا السور تعود إلى العصرين الروماني والبيزنطي^(٨). أما فيما يتعلق بالأبراج فقد لوحظ وجود اختلاف في عددها، فالأبراج العريضة الهلنستية الأصل تتميز غالباً بتغير في اتجاه الجدار، أما الأبراج الرومانية فقد كانت أصغر حجماً، وأغلب الظن أنه تم انتظار نحو مائة سنة من تأسيس المدينة في بداية العصر الهلنستي من أجل تشييد السور.

أعيد بناء مدينة أقاميا خلال حكم الإمبراطور كلوديوس في منتصف القرن الأول الميلادي، لكن بعد الكارثة التي حلت بها جراء الزلزال الذي حصل في كانون الأول من عام ١١٥م، الذي أدى إلى سقوط العديد من الضحايا حيث تراجعت الحياة وانطوت المدينة على نفسها داخل حدود أسوارها^(٩). وأعيد تخطيطها بمقياس يختلف عما سبق، وزينت بعناصر معمارية هامة، كما نظم شارعها الرئيس الذي كان طوله ٢ كم، وعرضه ٣٧.٥ م. وآثارها الحالية تعود إلى هذه الفترة، وما العناصر المعمارية من المعابد والحمامات والمسرح والأسوار إلا صورة رائعة عما كانت عليه هذه المدينة خلال العصر الإمبراطوري. لقد عرف السور الكثير من الترميمات الكبيرة في القرن السادس الميلادي ولاسيما في عهد الإمبراطور البيزنطي

يوسطينيانوس*

إن أقاميا القرن السادس، التي كانت في أوج ازدهارها بالرغم من الزلازل المدمرة التي عرفتھا في العامین ٥٢٦م-٥٢٨م، ليست أقاميا في القرن الثاني، كما أنها لم تكن ذات المدينة في العصر الهلنستي فقد أعيد بناؤها غداة كارثة حلت بها ١١٥م^(١٠).

أما بالنسبة لأرنست فيل فإن المدينة الهلنستية قد صممت و خططت بمقياس أقل حجماً من المدينة الرومانية، لأن المساحة حوالي ٢٢٥ هكتاراً مع شارع بعرض ٣٧،٥ وطول ٢ كم تتجاوز حدود مدينة إنطاكية التي اختيرت لتكون عاصمة لهم^(١١).

سيروس : شيدت مدينة سيروس في وادي عفرين من أجل حماية الطريق الرابط شمال بلاد الرافدين مع إنطاكية، تميزت بموقعها الإستراتيجي، حيث لعبت دوراً مهماً كمركز لقيادة الحملات والجيوش ضد الدولة البارثية ابتداءً من القرن الثاني قبل الميلاد، لكن طريق الفرات انتقل إلى حلب ابتداءً من عهد الإمبراطور الروماني سبتيموس سيفيروس في ١٩٣م-٢١٣م، وبذلك فقدت مدينة سيروس الأهمية، استمرت بهذه الظروف حتى عهد الإمبراطور يوسطينيانوس في القرن السادس الميلادي الذي أعاد لها الأهمية^(١٢).

إن أسوار سيروس ظاهرة للعيان حتى الآن، وقد تم إجراء عدة أسبار بهدف معرفة تاريخها وتخطيطها الذي ينسجم بشكل كامل مع طبوغرافية الموقع (هضبة)، إن هذه الأسوار العائدة إلى العصر البيزنطي والمدعمة بالأبراج ربما جاءت على تخطيط هلنستي ولكن التتقييات لم تثبت بعد ذلك الشكل(٢).

ابن هاني:

أما في المنطقة الساحلية فقد اكتشف في عام ١٩٧٦ موقع ابن هاني الذي كان مجهولاً كلياً قبل هذا التاريخ. إن التتقييات التي أجريت بين ١٩٧٨-١٩٨٣ كشفت لنا عن المعالم الأساسية لمدينة تأسست في منتصف القرن الثالث الميلادي ومن ثم هجرت بعد خمسين عاماً. وقد عثر في الجزء الشرقي من المدينة على التحصينات

التي خربت منذ زمن بعيد وقد كشف التنقيب أيضاً عن آثار بعض المباني (منازل، معبد، مصطبة، أفران وجزء من شبكة مياه المدينة الخ) .

لقد تأسس ابن هاني منذ البدء كمدينة كبيرة الأبعاد محصنة بأسوار منيعة ، بحجارة كبيرة، وقد بنيت قلعتها في الزاوية الشمالية الشرقية. تعطي هذه المدينة نموذجاً عن التصورات العمرانية و الدفاعية التي تجلت في النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد. مخططها العمراني منتظم يعتمد على محورين متعامدين^(١٣). الشكل (٣).

أعطت التنقيبات الأثرية في موقع رأس ابن هاني الكثير من المعلومات حول وجود أسوار عائدة إلى العصر الهلنستي ولا ننسى بأن المعلومات العائدة إلى هذا العصر تتميز بالقلّة والضعف. هذه المدينة التي يبلغ طولها حوالي كيلو متراً واحداً من الشرق إلى الغرب، والتي تأسست من قبل البطالمة الذين كانوا يسيطرون على هذه المناطق . في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، استطاع الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث السيطرة على هذه المنطقة ودفع قوة البطالمة إلى جنوب فلسطين وبذلك فإن مدينة رأس ابن هاني فقدت الأهمية وبعد قرن من الزمن أضيف حصن إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من الأسوار، ولكن مع ذلك فإن الموقع قد فقد الأهمية من جديد وتحول إلى مقلع للمنطقة، وهذا هو السبب في عدم وجود الكثير من المباني الأثرية فيها .

كما وضحت لنا التنقيبات طبيعة الأسوار الهلنستية في هذا الموقع والتي تتماشى مع طبيعة الأرض، حيث يلاحظ بأنها مستقيمة أحياناً، وأخرى تميل إلى الانحراف^(١٤).

تدمير:

ظهرت تدمير كمدينة مهمة في العصر الروماني، سمحت لها قوتها العسكرية أن تلعب دوراً هاماً في العلاقات بين الدولة الساسانية وقبلها البارثية والدولة الرومانية. ويعود تأسيسها إلى فترات طويلة قبل العصر الروماني، لكنها تحولت في هذا العصر إلى ملتقى للطرق القادمة من الشرق باتجاه الغرب. عاشت نهضة معمارية متميزة، ابتداء

من القرن الأول الميلادي ببناء عدة معابد كمعبد بل الذي يعد من أهم المعابد في سورية، عام ٣٢ م، واكتمل بناؤه في القرن الثاني الميلادي، والمباشرة ببناء معبد نبو في النصف الثاني من القرن الأول، الذي اكتمل في القرن الثاني، وبناء معبد بعلمشين في القرن الثاني الميلادي^(١٥). أما أسوارها الباقية الآن فتعود إلى عهد الإمبراطور ديوقلسيانوس (٢٨٥-٣٠٥م) و الإمبراطور يوستينيانوس (٥٢٧-٥٦٥م)، تمتاز المدينة بعظمتها وكبر مساحتها^(١٦). الشكل (٤).

يبدو أن الإمبراطور ثريانوس كان أول من أسس فرقة نظامية من مدينة تدمر في الجيش الروماني، كما كان أول من أقام حامية رومانية في تدمر عندما بدأ مشروعه الذي أراد به إيصال حدود الإمبراطورية الرومانية حتى دجلة والخليج العربي. كما اهتم الإمبراطور هادريانوس بالمدينة وزارها حوالي عام ٢٩ م وأعطاه لقب المدينة الحرة، مما حوّلها سنّ ضرائبها وجبايتها بنفسها. وهكذا أصبحت تدمر حلقة أساسية على طريق الحرير. وعرفت بذلك أكبر قدر من الازدهار الاقتصادي، وأكملت إنشاء العديد من المباني كمعبد بعلمشين، ومعبد اللات، والسوق العامة وبدأت بإنشاء الشارع الرئيس الذي عدل مخططات المدينة وأزال المباني القديمة.

على الرغم من هذه القوة، فإن أسوارها بقيت بسيطة لم تستطع أن تصمد أمام قوات الإمبراطور أورليانوس في القرن الثالث للميلاد وهذا ناتج عن الإهمال الذي طال أسوار المدن في عصر السلام الروماني كما أسلفنا آنفاً. ولكن تدمر تحولت فيما بعد إلى منطقة أساسية في الخط الدفاعي الذي أنشئ من قبل الإمبراطور ديوقلسيان في نهاية القرن الثالث للميلاد؛ إذ تم رفع أسوارها بهدف حماية الفرقة العسكرية الأولى، ويبدو أن الأسوار في هذه المرة لم تتضمن كل أجزاء المدينة حيث بقيت الأحياء السكنية خارجها^(١٧). وأخيراً قام الإمبراطور البيزنطي يوستينيانوس (٥٢٧-٥٦٥م) بتدعيم وتقوية هذه الأسوار لحماية المدينة من التهديد الساساني.

دورا أوروبوس

اكتشفت مدينة دورا أوروبوس في عشرينات القرن الماضي، تقع على نهر الفرات في موقع استراتيجي متميز، تعد من التأسيسات الأولى العائدة إلى عصر سلوقس نيكاتورنهاية القرن الرابع ق.م و بداية القرن الثالث قبل الميلاد. وقعت هذه المدينة في يد البارثيين عام ١١٣ ق.م، ومن ثم أصبحت تابعة للرومان عام ١٦٨ م قبل أن يتم تدميرها على يد الساسانيين عام ٢٥٦ م. ويمكن العثور بسهولة على الملامح الهلنستية والبارثية والرومانية الموجودة في هذه المدينة، فهي تتسم بوجود أسوار منيعة مدعمة بالأبراج، وقلعة داخل هذه الأسوار. حيث وزعت مساحة المدينة البالغة حوالي ٤٠ هكتاراً، على جزر سكنية متساوية تفصل بينها الشوارع المستقيمة المتعامدة، كما تم إنشاء مبانٍ كثيرة كالمعابد والقصر الحاكم والآغورا. وهي بما تتمتع به من خصائص تُعد صورة حقيقية عن مخططات المدن الشطرنجية^(١٨)، وتقدم نفسها بحسب مظهرها كمدينة شرقية من العصر الروماني، وبيّنت الدراسات الأثرية أن خصائصها هي خصائص مدينة هلنستية. ذات ميزات دفاعية واضحة؛ كالقلعة المنيعة المعزولة عن المدينة، وأسوار عمرانية تتطابق مع الجرف في الشرق والواديين الصغيرين المحيطين بالمدينة من الشمال والجنوب. إضافة إلى الجدران الضخمة المستقيمة المدعمة بأبراج مربعة من جهة الهضبة، وأبواب عظيمة محمية بشدة. يقع الباب الرئيس في الجهة الغربية ويمتاز السور في هذه الجهة بأنه مستقيم، ويبدو أن أسوار المدينة قد بنيت من الحجر منذ العصر الهلنستي ولكن الاحتلال البارثي للمدينة في عام ١١٣ ق.م أوقف هذا العمل ولاسيما في الجزء الشمالي من السور الغربي، وظل هذا الجزء من اللبن حتى سقوط المدينة في عام ٢٥٦ ميلادي على يد الساسانيين^(١٩)، إلى هذه الفترة تعود عملية تجميع الأتربة على واجهتي السور وذلك من أجل تدعيمها ولكن دون جدوى فقد سقطت المدينة ولازالت الدراسات مستمرة في هذا الموقع من أجل تصحيح كثير من الأفكار المطروحة سابقاً حول هذه الأسوار، وكذلك التأكد بشكل

أدق عن مراحل بناء هذا السور خلال تاريخه. الشكل (٥).

موقع جبل خالد:

اكتشف موقع جبل خالد في منطقة الفرات في مطلع الثمانينات من القرن العشرين خلال حملات الإنقاذ الأثرية لسد الفرات، عثر فيه على منشأة سلوقية، اختير هذا الموقع لأسباب إستراتيجية؛ إذ يتميز بطابع هضبي ذي انحدارات شديدة تطل على نهر الفرات من ارتفاع ١٠٠م، محاطة بسور ضخيم يبلغ طوله ٤ كم مبني من حجارة متساوية الارتفاع ومقيبة ذات حشوات وهذا السور مزود بثمانية وعشرين برجاً مربعاً وبنفتح على الجنوب الغربي بواسطة باب ضخم ذي فناء، كما تضم المنشأة قلعة محصنة تبلغ مساحتها ٢ هكتار فيها بقايا لقصر واسع ومنازل.^(٢٠)

فقدت المدينة أهميتها في نهاية العصر الهلنستي، وتحولت تدريجياً إلى خراب في العصر الروماني، حيث أدى تحول الطرق التجارية خلال العصرين الروماني والبيزنطي عن هذه المدينة إلى عدم وجود استيطان وفقدان الموقع لأهميته.

بصرى:

أصبحت بصرى عاصمة للولاية العربية عام ١٠٦م بعد أن كانت عاصمة للمملكة النبطية، تركزت فيها فرقة عسكرية رومانية.

يقع السور في الجهة الغربية من المدينة ومازال محافظاً على وضعه حتى الآن، يعود بناؤه إلى القرن الثاني للميلاد، أنشئ على أساسات نبطية كما أثبتته ذلك الأسوار الأثرية، يضم هذا السور باباً ضخماً يقع على الطريق المحوري للمدينة^(٢١). الشكل (٦).

شهباء (فيليبوبوليس): يعود تاريخ مدينة شهباء (فيليبوبوليس) إلى منتصف القرن الثالث وهي مسقط رأس الإمبراطور فيليب العربي (٢٤٤-٢٤٩م) وسميت نسبة له فيليبوبوليس، تلقت الكثير من الرعاية خلال فترة حكمه، كانت ذات مخطط منتظم؛

أسوارها شبه مربعة، تضم شارعين رئيسيين متقاطعين بالإضافة إلى بناء الكثير من المباني. وتعد هذه المدينة من الإنشاءات النادرة خلال العصر الروماني.

أما النوع الثاني من المدن فقد استمر الاستيطان فيها خلال العصور المختلفة وتعرضت أسوارها إلى تدمير متواصل بسبب الأحداث التي عاشتها وبالتالي فإن أعمال التجديد فيها لم تتوقف. ومن أهم المدن السورية:

مدينة أنطاكية العاصمة: حيث دلت المعطيات الأثرية على أن مساحة المدينة العائدة إلى عصر سلوقس نيكاتور تقدر بحوالي ١٥٠ هكتاراً. ويشير نص للجغرافي اليوناني سترابون في حديثه عن مدينة أنطاكية: أنها مؤلفة من أربعة أحياء ولكل حي سور خاص به إضافة إلى سور يحيط بالأحياء الأربعة، ويتحدث عن كيفية بناء هذه الأحياء بشكل^(٢٢) متعاقب من قبل ملوك السلوقيين الأوائل^(٢٣). وقد أثر الضعف الذي ساد الدولة السلوقية بدءاً من القرن الثاني قبل الميلاد على المدن السلوقية التي لم تتطور بطريقة مهمة^(٢٤). كما أن التغيرات التي طرأت على المدن السورية خلال العصر الروماني قد محت آثار العصر الهلنستي. ويقال إن الإمبراطور تيبيريوس بنى سوراً حول أنطاكية ضم أحياء المدينة العائدة للعصر السلوقي^(٢٥)، وشمل المدينة كاملة، ووسعها، كما تم تحويل الطريق العام القادم من حلب باتجاه البحر إلى طريق هام ذي أعمدة وأروقة وأرصعة، ويجتاز المدينة من الشمال إلى الجنوب على مسافة ٣ كم وعرض ٣٣ م. تعرضت هذه المدينة إلى زلزال عام ١١٥ م، وأعاد الإمبراطور تراجانوس بناءها، ودشن الطريق، وانتهت الأعمال في عهد الإمبراطور أنطونين النقي (١٣٨ م - ١٦١ م). الشكل (٧).

دمشق:

دخلت مدينة دمشق تحت السيطرة السلوقية متأخرة عن غيرها من المدن السورية عام ٨٨/٩٥ ق م، يعود تاريخها إلى قرون عديدة سابقة للعصور الكلاسيكية، وبذلك

لا تندرج ضمن المدن التي تم تأسيسها في العصر السلوقي، تلقت اسماً جديداً خلال هذه الفترة هو دمترياس خلال حكم الملك السلوقي دمتريوس الثالث. خضعت بعدها لفترة تحت سيطرة النبطيين ثم أصبحت واحدة من المدن العشر التي أسسها بومبيوس، وتبنت تقويم بومبيائي عام ٦٤ ق.م. لا نملك الكثير من المعطيات الأثرية عن هذه المدينة خلال العصور الكلاسيكية، وفيما يبدو أن الشارع الرئيس/ المستقيم/، الذي يسمى حالياً شارع مدحت باشا، لا يعود لأبعد من حكم الإمبراطور كلوديوس ٤١-٥٤ للميلاد الذي لعب دوراً كبيراً في تنظيم المدينة. كما كان معبد جوبيتير الرائع أهم مباني المدينة وتحول لاحقاً إلى كنيسة خلال العصر البيزنطي ومن ثم تحول إلى مسجد خلال العصر الأموي ولا يعود تاريخ هذا المبنى كمعبد كلاسيكي إلى أبعد من النصف الثاني من القرن الأول الميلادي^(٢٦). وتعود التغيرات الأساسية في مدينة دمشق من الناحية العمرانية إلى العصر الروماني، ولا سيما أن الفترة التي بقيت فيها تحت السيطرة السلوقية كانت قصيرة^(٢٧).

كما أننا لا نملك أية معلومات واضحة عن السور القديم حيث هدم في القرن الثامن الميلادي (الثاني للهجرة)، وأعيد بناؤه في القرن العاشر الميلادي (الرابع للهجرة) للمرة الأولى ومن ثم في القرن الثاني عشر ويعتقد بأنه لا يحتفظ بكثير من عناصر الجدار الذي سبقه ولكن المواد الأولية المتعددة القديمة الموجودة فيه هي في حالة إعادة استعمال، والأثر الوحيد الذي بقي في مكانه هو الباب الشرقي. لذلك فإن الباحثين حاولوا من خلال الدراسات الطبوغرافية الوصول إلى طرح بعض أفكار عن شكل الأسوار في مدينة دمشق خلال العصور القديمة والسابقة للإسلام انطلاقاً من نقطتين محددين، الشكل (٨):

الباب الشرقي والباب الغربي والاستفادة من الطريق المستقيم أو المحوري الذي يربط هذين البابين. ومن خلال مد خطوط مستقيمة بين نقاط عديدة، توصلوا بشكل افتراضي إلى شكل المستطيل لمدينة دمشق خلال العصر الروماني. كما تم التعرف على بعض

النقاط الأخرى مثل باب توما الذي يفترض أنه باب قديم، وقد لاحظوا أيضاً أن تخطيط الأسوار خلال العصور الإسلامية لم تأت دائماً وبشكل دقيق وفي كل الاتجاهات على تخطيط القديم العائد إلى ما قبل الفتح الإسلامي، إذ ظهرت حالة بروز أو ظهور فجوة بالنسبة للسور القديم كحالة ميلان نحو الداخل أو الخارج في بعض الاتجاهات بالنسبة للتخطيط القديم للمدينة، وأشاروا إلى وجود سبعة أبواب لدمشق خلال العصور القديمة^(٢٨). لازالت الدراسات مستمرة حول تخطيط مدينة دمشق ومعرفة شكل أسوارها ومحاولة التأكد بشكل أعمق حول صحة ما تم طرحه من فرضيات حول تطور مدينة دمشق من قبل عدد من العلماء.

حمص:

تحاكي حمص مدينة دمشق من حيث استمرار الاستيطان فيها، ولقد طرحت الكثير من التساؤلات والفرضيات عن طبيعة أسوارها وتاريخ تطورها خلال العصور الكلاسيكية، حيث حاول العلماء منذ فترة طويلة معرفة جوانب عديدة من تأريخها، والتعرف على طبيعة تنظيمها العمراني، حتى إن البعض منهم اعتمد على المخطط الحالي للمدينة في محاولة لاستنباط مخططها القديم^(٢٩)، وقد تسببت الزلازل والحروب في فقدان المدينة للكثير من آثارها العائدة إلى العصور الرومانية والبيزنطية، ويتم استنباط المعلومات عن هذه المدينة من كتب الرحالة الذين زاروا المدينة خلال القرون الماضية، أو من كتب المؤرخين اللاتين واليونان من العصر الروماني، بالإضافة إلى تقارير الحفريات التي أجريت في المدينة خلال القرن الماضي، التي أظهرت الكثير من الأساسات والعناصر المعمارية للمباني العائدة إلى العصرين الروماني والبيزنطي^(٣٠). حيث تركزت هذه الحفريات بشكل أساسي في المدينة القديمة، داخل وخارج أسوارها العائدة إلى الفترة الإسلامية، التي كانت بشكل عام حفريات إنقاذ، وأما المقاطع فيها فليست واضحة بشكل كاف، كما أن المنقبين لم يشيروا في أحيان كثيرة إلى مناسيب الطبقات الأثرية التي عثر فيها على مادة أثرية.

سنحاول أن ندرس الأسوار والأبواب للمدينة الإسلامية والمعروفة حالياً للوصول إلى بعض الاستنتاجات حول طبيعة أسوار المدينة خلال العصور السابقة للفتح الإسلامي. الشكل (٩).

أ - الأسوار: تقع مدينة حمص ضمن سور مستطيل تقريباً وتحتل القلعة الجانب الجنوبي الغربي له. ووفقاً للتنقيبات التي قام بها م. موصلي، لا يوجد أية علاقة بين المدينة الرومانية البيزنطية وبين السور الذي يعود إلى الفترة الإسلامية^(٣١)، فالمدينة المحصورة ضمن السور هي إذاً مدينة إسلامية، وقد تأكدت هذه النظرية عندما تبين أن السور يمر عبر مبنى "كبير في الشمال تم التعرف عليه على أنه كنيسة ومن المحتمل أن هذا المبنى كان قد دمر في أواخر العصر البيزنطي بسبب الحروب التي عاشتها المنطقة بين الإمبراطورية البيزنطية والساسانية، وهذا ما أدى إلى تقلص حجم المدينة حتى حدود السور الإسلامي في جهة الشمال، كما أثبتت هذه الفرضية أيضاً اكتشاف بقايا معمارية من العصور الرومانية البيزنطية الواقعة خارج السور الحالي، مما يعني أن السور العائد إلى العصرين الروماني والبيزنطي كان متقدماً أكثر إلى الشمال.

يأخذ السور الإسلامي شكلاً مستطيلاً تقريباً بارتفاع حوالي عشرة أمتار، وعرض حوالي أربعة أمتار. وقد تم بناؤه من قطع كبيرة من الحجارة، وتزويده بأبراج كبيرة في النقاط الاستراتيجية. يعتقد م. موصلي أن هذه التحصينات تعود إلى العصر الأموي^(٣٢)، لكنه لا يعطي أية دلائل. تمت تقوية الأسوار الإسلامية خلال القرن الثالث عشر لصد الهجمات العسكرية، وقد لعبت تحصينات المدينة دوراً في المقاومة خلال الحروب الصليبية، لكنها دمرت خلال الهجمة الصليبية الثانية.

ب- الأبواب: تعود الأبواب الحالية إلى الفترة الإسلامية، وقد يكون للبعض منها علاقة بالمخطط القديم لمدينة حمص. ويشير م. موصلي اعتماداً على الواقدي من القرن التاسع الميلادي (الثالث للهجرة)^(٣٣): كان لحمص خلال الفتح الإسلامي

أربعة أبواب هي: الرستن، والشام، والجبل، والصغير. أما في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع للهجرة) فقد كان لحمص الأبواب التالية:

٠١ باب السوق: يقع إلى الشمال، هذا الباب هو باب الرستن، وقد كان ما يزال قائماً خلال القرن التاسع عشر، فقد وصفه الرحالة الأوروبيون.

٠٢ باب تدمر: كانت القوافل القادمة من تدمر تدخل من هذا الباب، ولم يتبق منه سوى بعض البقايا، وموقعه يعود إلى فترة سابقة للفتح الإسلامي.

٠٣ باب الدريب: ذكره الرحالة الأوروبيون باسم باب الدير، ولم يتبق منه أي أثر.

٠٤ باب السباع: كان موقعه إلى شرق القلعة، ولم يتبق منه أي أثر، ولكنه من المؤكد أن هذا المكان كان مستخدماً كباب قبل الفترة الإسلامية.

٠٥ باب التركمان: يقع إلى الشمال الغربي من القلعة، ولم يتبق منه إلا بعض البقايا المعمارية، ووفقاً لم. موصلي، يمكن أن يكون هناك علاقة لاسم الباب مع استيطان التركمان في المدينة خلال القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس للهجرة).

٠٦ باب المسدود: يقع شمال باب التركمان، تشير الكتابة فوق ساكفه إلى تاريخ إنشائه في القرن الثالث عشر.

٠٧ باب هود: بقي منه بعض البقايا المعمارية، ومن المؤكد أن هذا الباب كان مستخدماً منذ الفترات القديمة كفتحة للمدينة باتجاه الغرب^(٣٤).

يمكن لنا، باستخدام الأبواب التي تعود إلى فترة الفتح الإسلامي، أن نبني فرضياتنا عن العلاقة بين الأبواب التي سبق ذكرها والأبواب العائدة إلى الفترة الرومانية البيزنطية. ويمكن لهذه المحاولة أن تسمح لنا بفهم أكبر لإمكانية تصور موضع الأبواب ما قبل الإسلام، والحصول على بعض المعلومات عن المخطط القديم للمدينة.

يبدو من مخطط المدينة الحديث أن أربعة من أبوابها تشغل موضعاً قديماً، هي السوق وتدمر والسباع وهود.

يمكن أن يربط باب السوق مع باب الرستن خلال الفترة الإسلامية. الذي يؤدي إلى مدينة الرستن الواقعة على محور الطريق باتجاه حلب في الشمال. ولكنه من الصعب التظاهر بأن موضعه يعود إلى الفترة الرومانية البيزنطية لأننا سبق وشرحنا أن السور الشمالي للمدينة يعود للفترة الإسلامية، وأن السور الروماني البيزنطي كان متقدماً إلى الشمال. ومن المحتمل أن باب المدينة كان واقعاً على المحور نفسه إلى الشمال من السور الإسلامي.

قد يتطابق باب تدمر مع الباب الصغير، وقد يعود إلى الفترة الرومانية. وقد كان الطريق الذي يدخل المدينة من هذا الباب منذ القديم أحد طرق القوافل القادمة من تدمر. كما يمكن أن نقرر أن هذا الدليل مندمج في قلب التقسيمات القديمة الموجودة في شرق حمص، حيث عالجت سابقاً التنظيمات الزراعية في الأراضي الواقعة إلى الشرق من مدينة حمص و ذلك عن طريق تحليل المعطيات الأثرية وكذلك الاستفادة من دراسة الخرائط الطبوغرافية، والصور الجوية، أيضاً والصور الفضائية، لقد سمحت لنا هذه الدراسات التعرف على وجود بقايا آثار للتقسيمات الزراعية في هذه المنطقة وإحدى المحاور الأساسية في قلب هذه التنظيمات هو الطريق القادم من الشرق من جهة تدمر حيث تدخل المدينة من باب تدمر، هذه التنظيمات وكذلك الطريق المذكور تعود إلى العصر الروماني لذلك يبدو أن هذا الباب كان موجوداً منذ القديم^(٣٥).
الشكل (١٠).

بقي أن نتعرف على بابين: الشام، وهو يخص مدينة دمشق، والجبل، وهو باتجاه الجبل. يمكن لباب السباع أن يشغل مكان باب الشام، وهو متوضع على محور باب السوق باتجاه الجنوب أي باتجاه مدينة دمشق. وأخيراً، وبين الأبواب الثلاثة التي تخترق السور الغربي لإيميسا، يبدو أن باب هود كان واقعاً مكان باب الجبل. فمن هذا

الباب يمكن الوصول إلى المنطقة الجبلية الواقعة إلى الغرب. كما أن باب هود متوضع على محور باب تدمر، ويسمح للقوافل بالوصول إلى المتوسط. ومن المرجح إذاً أن باب هود يعود أيضاً إلى الفترة القديمة. وللأسف، لم يتبق إلا القليل من البقايا المعمارية التي لا تسمح لنا بتأكيد هذه الفرضيات.

لذلك وضمن المعطيات الحالية فإنه من المحتمل أن السور في الجهة الشرقية والغربية وكذلك في الجهة الجنوبية قد حافظ على حدود المدينة العائدة إلى العصرين الروماني والبيزنطي أما السور الواقع في الشمال والعائد إلى العصور ما قبل الإسلامية يمكن أن يكون إلى الشمال من السور الإسلامي. وقد تم الاعتماد على توزيع المواقع الأثرية في مدينة حمص لطرح الأفكار السابقة.

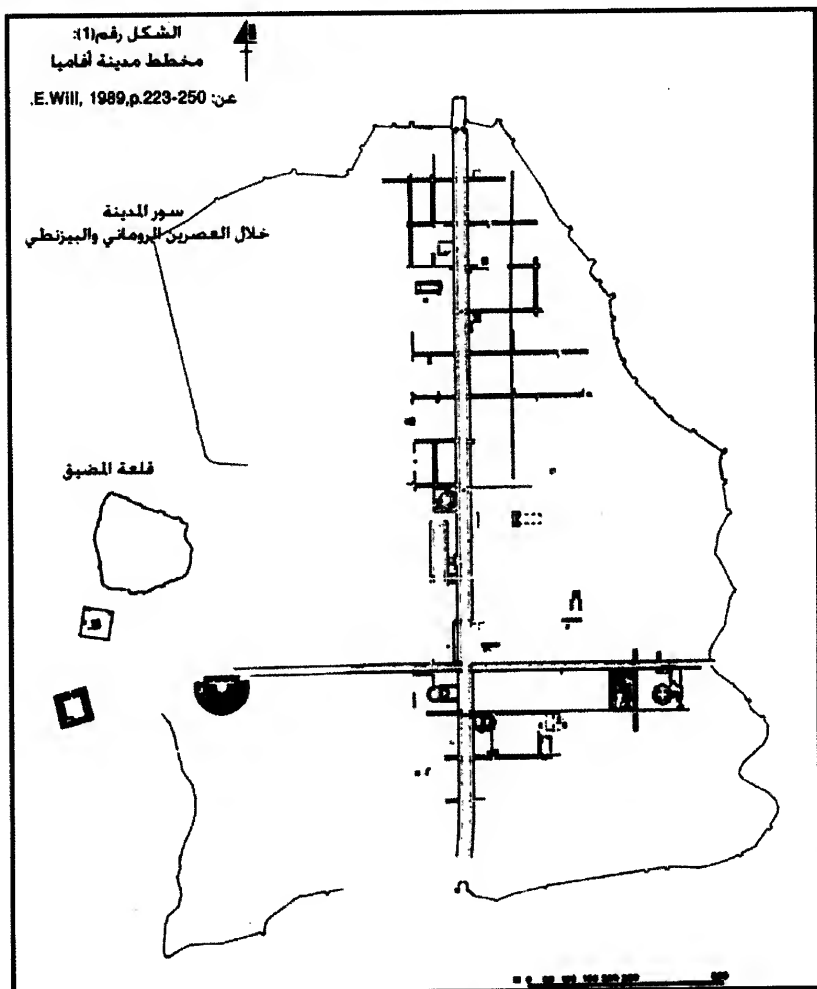
وأخيراً فإننا بحاجة إلى المزيد من التنقيبات في المستقبل للوصول إلى فهم أعمق لواقع الأسوار في المدن السورية. ولا سيما أن النقاشات مازالت مستمرة في الوسط العلمي الأثري والتاريخي حول فكرة أن تكون أسوار المدن السورية خلال العصرين الروماني والبيزنطي قد جاءت على أساسات الأسوار العائدة إلى العصر الهلنستي، وهنا لابد من الإشارة إلى أن وجود الآثار الهلنستية في بعض النقاط من الأسوار لا تعني بالضرورة أن تكون الأسوار الرومانية والبيزنطية قد جاء تخطيطها بشكل كامل على تخطيط أكثر قدماً، خاصة وأنها أشرنا سابقاً كيف أن الأحداث التي عاشتها سورية خلال العصور المختلفة قد لعبت دوراً أساسياً في تغيير شكل المدن السورية ولا ننسى أيضاً سياسات التوسع في المدن التي كان لها دور مهم في تغيير شكل المدينة خاصة خلال العصر الروماني حيث عرفت سورية خلالها نهضة عمرانية ومعمارية لذلك تم إعادة تخطيط المدن السورية وفق تخطيط جديد بما ينسجم مع ازدياد عدد السكان وكذلك توفير المساحات اللازمة لبناء الأبنية الجديدة العامة والخاصة.

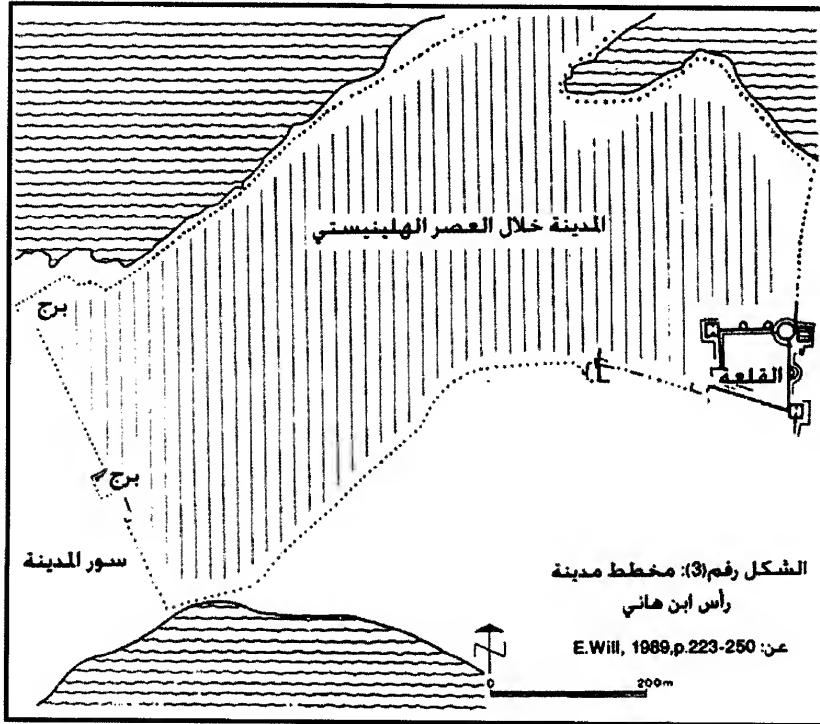
المراجع

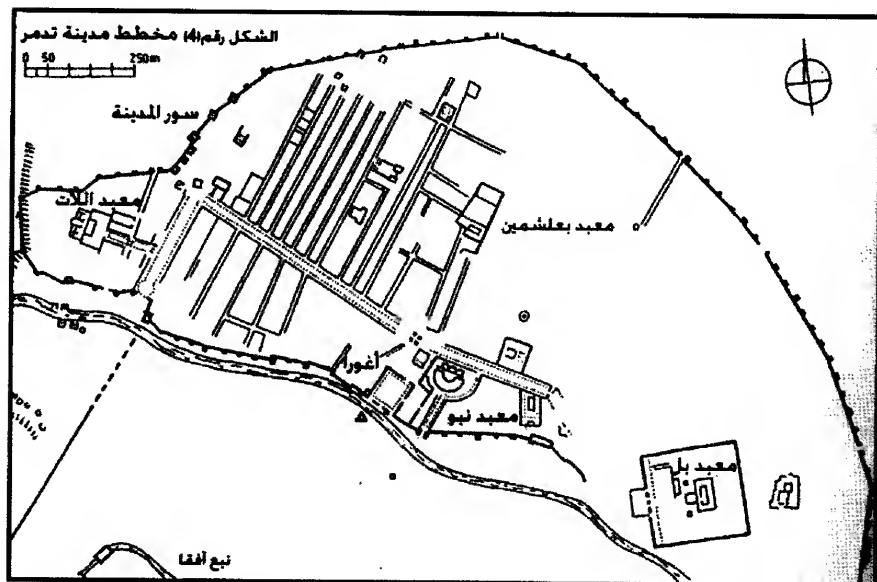
المراجع العربية والأجنبية :

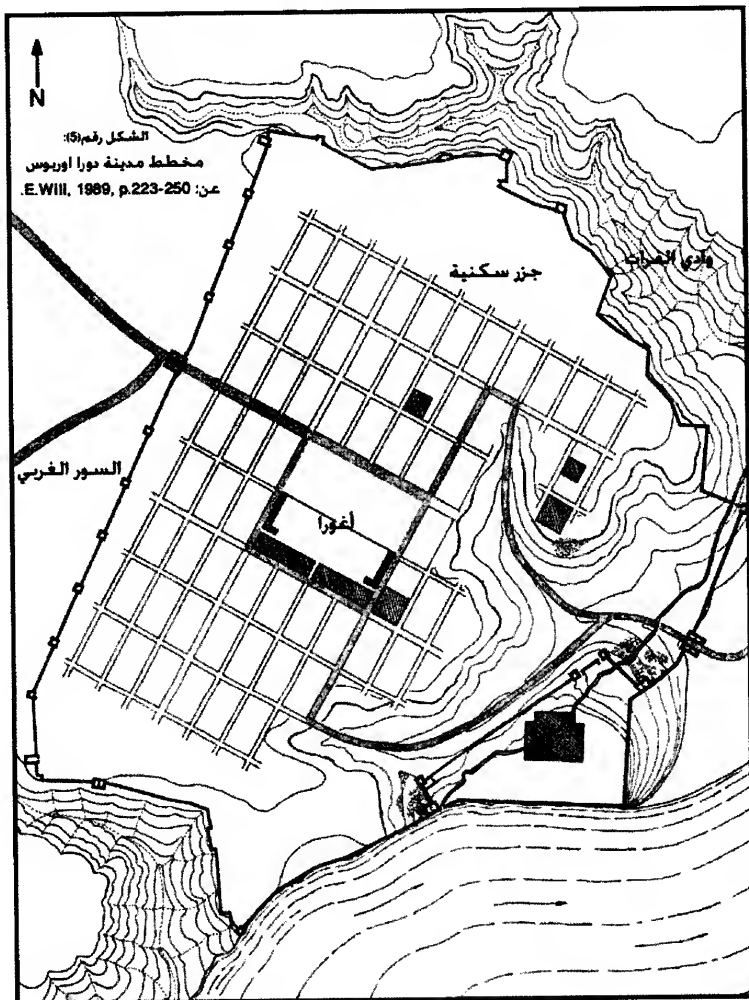
- الموصللي، ماجد: موجز في تاريخ مدينة حمص و آثارها، حمص، ١٩٨٤.
- بالتي، شارل: "تحولات و استمراريات الفضاء العمراني، منذ التأسيس الهلنستي وصولاً إلى المدينة الرومانية- البيزنطية"، المدينة في سوريا و أقاليمها : الموروثات و المتحولات، ترجمة محمد ديبات، دمشق، ٢٠٠٤، ص٢٢٩-٢٥٤.
- لوريش، بيير: الظاهرة العمرانية في سورية الهلنستية، المدينة في سوريا و أقاليمها : الموروثات و المتحولات، ترجمة محمد ديبات، دمشق، ٢٠٠٤ ص١٧٥-١٣٧.
- ABDULKARIM M., *Recherche sur la cité d'Émèse à l'époque romaine*, Thèse de Doctorat, Université de Versailles-Saint-Quentin-en-Yveline.1997.
- Id., Télédétection et archéologie : sur la cité d'Emèse, *Photo-Interprétation*, 37, Paris, 1999, pp.14-34.
- Id., Reconnaissance d'une limitation antique dans la région d'Emèse, *AAAS*, Damas, 2002-2003, p261-275.
- ABDULKARIM M et al., L'apport des textes de Strabon dans l'analyse environnementale et historique des sites de la vallée de l'Oronte, *Photo-Interprétation*, 2-3, Paris, 2004, p.5-17.
- BOUNNI A., Palmyre et les Palmyréniens, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Sarrebruck, 1989. pp.251-266.
- DODGEEON M.H and LIER N.C., *The roman Eastern frontier and the Persian wars*, London 1991.
- DODINET M et al., Le paysage antique en Syrie, l'exemple de Damas, *Syria*, LXVII, Paris, 1990, p.339-368.
- DOWNEY G., *Ancient Antioch*, Princeton, 1963.
- LERICHE P et MAHMOUD A, Bilan des campagnes de 1986-1989 de la mission franco-syrienne a Doura-Europos, *Doura-Europos Etudes* 1988, p.3-24.

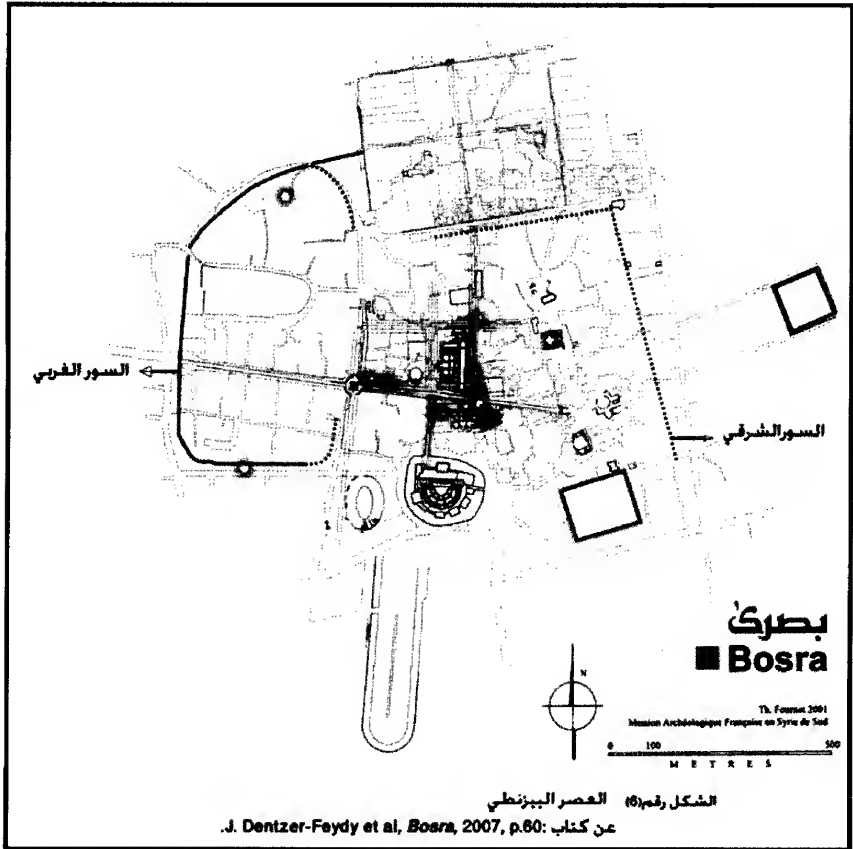
- Id., Les fortifications grecques et romaines en Syrie, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Sarrebruck, 1989, p.267-282.
- LERICHE P. et GELIN M., *DOURA-EUROPOS Etudes IV 1991-1993*, Beyrouth.1997.
- MOUTERDE E et POIDEBARD A., *Le limes de Chalcis*, Paris, 1934.
- POIDEBARD A., *Les traces de Rome dans le désert de Syrie*, Paris,
- SARTRE M., *Bostra, des origines à l' Islam*, (BAH 117), Paris.1985.
- Id., *D'Alexandre à Zénobie*, Paris, 2001.
- SAUVAGET J., Le plan antique de Damas, *Syria*, 1949, p.332-357.
- WILL E., Ville de la Syrie, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Sarrebruck, 1989, p.223-250.
- Id., Damas antique, *Syria*, Paris, 1994, pp.1-43.
- Id ., Antioche sur l'Oronte, Métropole de l'Asie, *Syria*, Paris,1997, pp.99-113
- WHITTAKER C.R., *les Frontières de l'Empire Romain*, 1989, Besançon.
- WHITTAKER C.R., *Frontiers of the Roman Empire*, London, 1994.

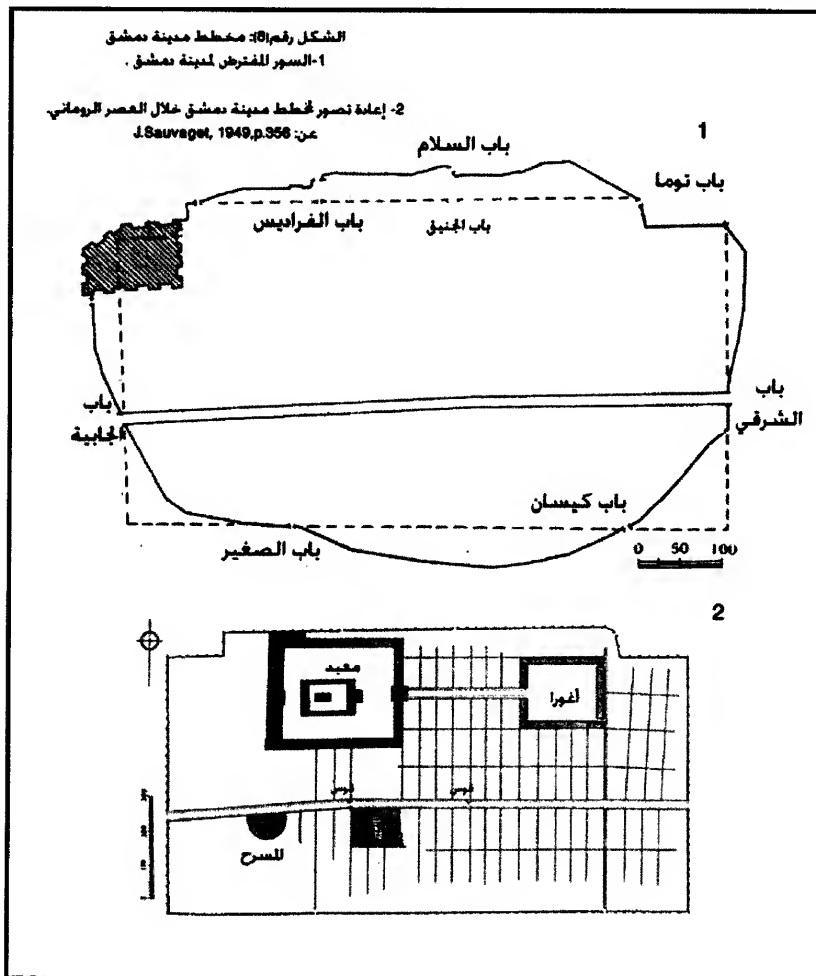


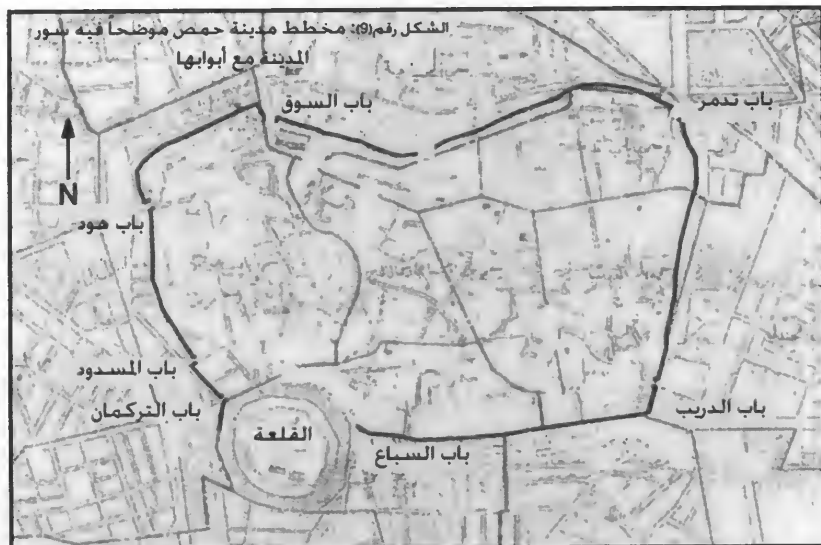


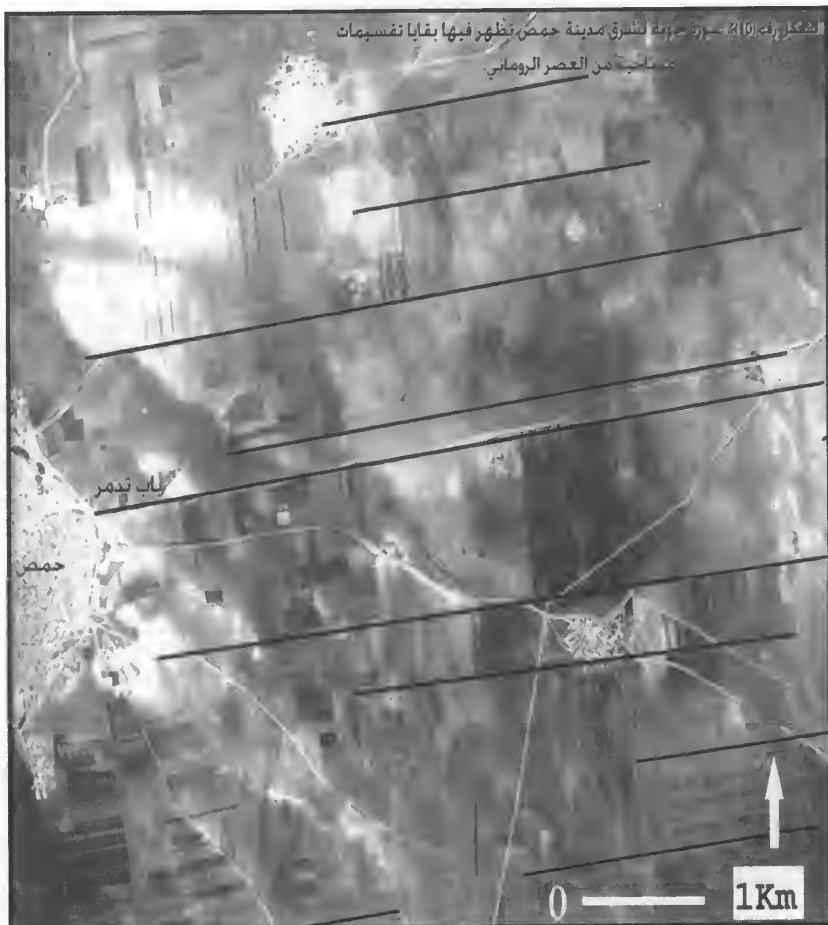












الهوامش

- (1) WILL E, Ville de la Syrie, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Sarrebruck, 1989, p.223-250.
- (2) SARTRE M., *D'Alexandre à Zénobie*, Paris, 2001.
- (3) POIDEBARD A., *Les traces de Rome dans le désert de Syrie*, Paris, 1945.
- (4) LERICHE P et MAHMOUD A, Bilan des campagnes de 1986-1989 de la mission franco-syrienne à Doura-Europos, *Doura-Europos Etudes* 1988, p.3-24.
- (5) C.P. WHITTAKER, *les frontières de l'Empire romaine*, 1989, Besançon. C.R.WHITTAKER, *Frontiers of the Roman Empire*, London, 1994.
- (6) M.H.DODGEEON and N.C. LIER ., *The roman Eastern frontier and the Persian wars*, London 1991.
- (7) P. LERICHE, Les fortifications grecques et romaines en Syrie, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Sarrebruck, 1989, p.267-282.

E. MOUTERD et A. POIDEBARD ., *Le limes de Chalcis*, : أنظر أيضاً
Paris, 1934.

(٨) بالتي، شارل: "تحولات واستمراريات الفضاء العمراني، منذ التأسيس الهلنستي وصولاً إلى المدينة الرومانية- البيزنطية"، المدينة في سوريا وأقاليمها: الموروثات والمتحولات، ترجمة محمد دبيات، دمشق، ٢٠٠٤، ص ٢٣٩.

(٩) بالتي، شارل: 2004 ص ٢٣٩.

(١٠) المرجع السابق: ص ٢٤٥.

(11) E.WILL, 1989, p.232.

(12) P.LERICHE, 1989, p.270 .

(١٣) لوريث، بيير: الظاهرة العمرانية في سورية الهلنستية، المدينة في سورية وأقاليمها: الموروثات والمتحولات، ترجمة محمد دبيات، دمشق، ٢٠٠٤ ص

- (14) P.LERICHE, 1989, p.373-374.
- (15) BOUNNI A., Palmyre et les Palmyréniens, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Sarrebruck, 1989, pp.251-266.
- (16) E. WILL, 1989, p.237.
- (17) P.LERICHE, 1989, p.279
- (18) Ibid, p.281.
- (19) Ibid, p.281.
- (٢٠) لوريش، ببيير: 2004، ص ١٦١.
- (21) P.LERICHE, 1989, p.275.
- حول تطور مدينة بصرى ، أنظر :
M.SARTRE, *Bostra, des origines à l' Islam*, (BAH 117), Paris, 1985.
- (22) E.WILL E, Antioche sur l'Oronte, Métropole de l'Asie, *Syria*, Paris, 1997, pp.99-113
- (23) STRABON, *Geographie*, XVI, II, 10.
- (24) E. WILL, 1989, P. 229.
- أنظر كذلك :
- (25) WILL E, Damas antique, *Syria*, Paris, 1994, pp.1-43.
- (26) G. DOWNEY, *Ancient Antioch*, Princeton, 1963.
- (27) E. WILL, 1989 , p.236.
- (28) M.DODINET et al., Le paysage antique en Syrie, l'exemple de Damas, *Syria*, LXVII, Paris, 1990, p.339-368
- (29) J.SAUVAGET, Le plan antique de Damas, *Syria*, 1949, p.332-335.
- M.DODINET et al, op.cit, p.339-368.
- حول تطور مدينة حمص خلال العصرين الهلنستي والروماني ، أنظر :
- (30) M.ABDULKARIM, 1997, *Recherche sur la cité d'Émèse à l'époque romaine*, thèse de Doctorat, univesité de Versailles-Saint-Quentin-en-Yveline.
- M.ABDULKARIM., 1999, Télédétection et archéologie : sur la cité d Emèse, *Photo-Interprétation*, 37, pp.14-34.

M.ABDULKARIM et al, L'apport des textes de Strabon dans l'analyse environnementale et historique des sites de la vallée de l'Oronte, *Photo-Interprétation*, 2-3, Paris, 2004, p.5-17.

(٣١) الموصلي، ماجد: موجز في تاريخ مدينة حمص و آثارها، حمص، ١٩٨٤، ص ٦٣.

(٣٢) المرجع السابق، ص ٦٣.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٦٤.

(٣٤) المرجع السابق، ص ٦٥.

(35) M.ABDULKARIM., Reconnaissance d'une limitation antique dans la région d'Emèse, *AAAS*, Damas, 273.